﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣﴾ [الحجر: 63]

المواصلةُ بتوجيهِ نظرِ لوطٍ، إلى ما هو أهمُّ وأوْلى منَ الإنكارِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا قال لوطٌ للملائكة: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ وكانت حقيقةُ المنكر هي فيما خرج عن عادةِ أشكالِه، ولم يكنْ على طريقة أمثالِه، أضْربوا عن قوله، وكان جوابُهم أنْ ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾[1]. وأيضًا لمّا قال لهم لوطٌ: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أجابوهُ بِما يُزيلُ ذلك؛ إضْرابًا عَنْ قولِه وإبْطالًا لِما ظَنَّهُ مِنْ كوْنِهِمْ مِنَ البَشَرِ الَّذينَ لَمْ يَعْرِفْ قَبيلَتَهُمْ فَلا يَأْمَنُهُمْ أنْ يُعامِلوهُ بِما يَضُرُّهُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡتَرُونَ﴾: أصلُ المَرْيِ من: مَرَيْتُ النّاقةَ: إذا مَسَحْتُ ضرْعَها للحَلَبِ[3]، والمِرْيَةُ: التَّردُّد في الأمْرِ، وهو أخصُّ مِنَ الشَّكِّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ [الحج: 55][4]، والامتِراءُ: المُحاجَّةُ فيما فيه مريةٌ، قال تعالى: ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾ [مريم: 34]. والمِراءُ أيضًا: الجِدالُ، والمُماراةُ: المُجادَلَةُ على مَذْهبِ الشَّكِّ والرّيبة، ويُقالُ للمُناظَرَةِ مُماراةٌ؛ لأنَّ كلَّ واحِدٍ يَسْتَخْرِجُ ما عِنْدَ صاحِبِه ويَمْتَريه كَما يَمْتَري الحالِبُ مِنَ الضَّرْعِ[5]. والمقصود بالامتراء في الآية: الشَّك، أي: بالأمْرِ الَّذي كانَ قومُكَ يَشُكّونَ في حُلوله بهم، وهو العذابُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/71.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/63.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مري).
(4) الراغب، المفردات: (مرى).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (مري).

المَعنى الإجْماليّ:

مَجيءُ الملائكة لنجدةِ لوطٍ، وتصديقِ وعيدِ الله، لا لِما يُخيفُه ويُؤذيه

الآية حكايةٌ لِما ردَّ به الملائكةُ على لوطٍ؛ لكي يُزيلوا ضيقَه بهم، وكراهيتَه لوجودهم عنده، فقالتِ الملائكةُ له: بل نحنُ ملائِكةُ اللّه، جِئناك بعذابِ قَومِك، الَّذين كانوا يَستخفّون بما أنذرتَهم به من عذاب اللّه ونِقمتِه، أي: إنَّنا لم نجئ بما يخيفُك، بل جئنا بالبلاء الَّذي كنتَ تتوَعَّدُ به القومَ فيمترون فيه، ويُكذّبون به، فهذا هو ما جئناك به[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في الآية:

ما يَلفِظُ الملائكةُ من قولٍ، إلّا له أهميّةٌ وأثرٌ في سامعِه

وردتِ الآيةُ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ، لتوجيه أسماعِ المخاطَبين إلى الاهتمامِ بالمقاولةِ بين الملائكة ولوطٍ عليه السلام.

بَلاغةُ التَّعْبيرِ على مُقتضَى الظّاهِر:

تَنبيهُ المؤمنين إلى أن يكونَ السّؤالُ عنِ الأهمِّ

إنْ حُملَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ على إنكار معرفةِ لوطٍ بالملائكة، كان الإضرابُ في قول الملائكة: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ على طريق الأسلوبِ الحكيم، فيكونُ على خلاف مقتضَى الظّاهرِ، وإمّا أن يكونَ من قَبيلِ تلقّي المخاطَب بغيرِ ما يترقَّبُ، وإمّا أن يكونَ من قَبيلِ تلقّي السّائل بغير ما يتطلّبُ، وذلك بتنزيل كلام لوطٍ عليه السلام منزلةَ السّؤالِ عنهم لمعرفتِهم، فلمّا كانَ الإضرابُ لا يوافقُ ما قبْلَه من إنكار لوطٍ لهم، دلَّ على أنّه منَ الأسلوبِ الحكيم؛ لأنَّ لوطًا أنكرَ معرفتَه بالملائكةِ، وجاء جوابُهم في بيان سببِ مجيئِهم، وليس في التّعريف بهم، وفائدةُ العُدول إلى هذا الأسلوب هو تنبيهُ لوطٍ عليه السلام إلى ما هو أهمُّ له وهو معرفةُ سببِ مجيئهم وأنَّه هو الأولى بالقصدِ في السّؤال، ويندرجُ فيه معرفتُه

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/86، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/38، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/250.

بهم؛ لعلمِه أنَّه لا يأتي بالعذاب إلّا الملائكةُ، وذهب الماتريديُّ إلى أنَّ الإضرابَ جاء عن كلامٍ مطويٍّ للإيجاز، كما بُنِيت عليه هذه القصّةُ، فيكونُ الكلام على مقتضى الظّاهر، ويكونُ الملائكةُ قد قالوا ذلك له، بعد ما كان بين لوط وقومه مجادلاتٌ ومخاصَماتٌ كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾، وغيرِ ذلك منَ المُخاصَمات، وقد كان لوطٌ يعدُهمُ العذابَ بصنيعِهمُ الذي كانوا يصنعون؛ ولذلك قالوا له: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: 29]؛ فعند ذلك قال: ﴿بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، فيكونُ قد حذف جُملًا للإيجاز مع وضوح المعنى[1]، وإن حُملَ قولُه: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ على الكناية كما تقدَّم كان الإضرابُ على مقتضى الظّاهر؛ لأنَّه جوابٌ لقول لوطٍ عليه السلام.

فائِدةُ التَّعْبيرِ بـ﴿بَلۡ﴾:

رسُلُ اللهِ منَ الملائكة لا تَخذلُ عبادَه، بل تأتي بما يَسرُّهم ولا يُحزِنُهم

تحتملُ ﴿بَلۡ﴾ أنْ تكون إضرابًا إبطاليًّا عن موجبِ الخوفِ المذكورِ، فيكونَ كنايةً كما تقدَّم، والمعنى ما جئناك بما تُنكِرنا لأجله، أو ما جئناك بشيء تخافُه، بل بما يسرُّك وتقَرُّ به عينُك، فلا تخفْ ولا تحزنْ، وبيانُ وجه هذا المعنى أنّه لمّا كان مجيءُ العذاب مُستلزِمًا للسّرور والذين جاؤوك بالسّرور والتّشفّي من أعدائك لا يُخافُ منهم ولا يُنكَرون، كان مآلُ المعنى: لا تخفْ منّا ولا تُنكِرْنا، كما تحتملُ أن تكون إضرابًا إبطاليًّا عمّا فهمَه لوطٌ عليه السلام من أن يُصيبوه بشرٍّ أو أن يَتركوا نُصرتَه، والمعنى ما خذلناك وما خلّينا بينك وبينهم بل جئناك بما يُدمِّرُهم منَ العذابِ الذي كانوا يُكذّبونك حين كنتَ تتوعّدُهم به[2]، والجمعُ بين المعنيَيْن جائزٌ، ويحتمله السّباقُ والسّياقُ.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/451، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/311.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/488، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/182، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/311.

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالماضي ﴿جِئۡنَٰكَ﴾:

ما أخبرَ به الله، فسوف يَتحقّقُ بإذن الله

عُبِّرَ بصيغة الماضي للإيذانِ بتحقّقِ مجيء العذابِ، وأنَّه واقعٌ لامحالةَ[1].

سببُ إيثارِ ﴿جِئۡنَٰكَ﴾ في السّياقِ:

سرورُ المؤمنين بالتّشفّي من عدوِّهم، وتفويضُ العذابِ إلى رسولِهم

قولُه تعالى: ﴿جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، لم يقل: (جِئْناهُمْ بِما كانوا فِيهِ يَمْتَرونَ)، وسببُ إيثار نِسبةِ المجيء بالعذاب إليه ﷺ مع أنَّه نازلٌ بالقوم؛ للإشعارِ بأنَّه يكون بطريق تفويضِ أمرِ العذاب إلى لوطٍ عليه السلام لا بطريق نزولِه عليه، كأنَّهم جاؤوه وفوّضوا أمرَ العذابِ إليه، ليرسِلَه عليهم حسبما كان يتوعّدُهم به، ففيه تكريمٌ للوطٍ عليه السلام، كما أنَّ في هذه النّسبة إشعارًا بالسُّرور والتّشفّي من عدوّه ولِما يلزمُه من نجاتِه مع أتباعِه[2].

دَلالةُ (الباء) في قولِه ﴿بِمَا﴾:

العذابُ واقعٌ على قوم لوطٍ، لا مفرَّ منه، ولا منأى عنه

تحتملُ (الباء) أن تكونَ لتعديةِ الفعلِ (جاء)، إلى الاسم الموصولِ (ما)، وهو الظّاهرُ، أي جاؤوا لوطًا ما كانوا فيه يمترون، على معنى تفويضِ العذاب إليه وإدخالِ السّرور إلى قلبِه، والتّشفّي من عدوّه كما تقدّم، كما تحتملُ أن تكونَ للملابسةِ[3]، بمعنى ملابسة عذاب قوم لوطٍ لمجيئِهم؛ لأنَّهم مأمورون به، فيفيدُ أنَّ العذاب واقعٌ لامحالةَ.

فائِدةُ التَّعبيرِ بـ(ما) في الآية:

وقوعُ العذابِ على المُجرمين، إثباتٌ لصدْقِ رسولِهم، وصحّةِ رسالتِه

أفاد التَّعْبيرُ بالاسم الموصولِ (ما) الذي يفيدُ العمومَ تعظيمَ العذاب الذي جاءهم، ولم تقل الملائكة (بل جئناكَ بعذابِهم الذي كانوا فيه يمترون)، مع حُصولِ الغرضِ الأصليِّ، ليتضمّن الكلامُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/83.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

الاستئناسَ من وجهين: أحدُهما تحقّقُ عذابِهم وتعظيمُه بما دلَّ عليه لفظُ العموم (ما)، والثّاني تحقّقُ صدقِه ﷺ؛ لأنَّهم كانوا يَشكّون في صدّقِه وصدقِ رسالتِه، ففيه تذكيرٌ لِما كان يكابدُ منهم منَ التَّكذيب[1].

بَلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في الآية:

الكلامُ على معنَى المآلِ، بهلاكِهم بما ارْتكبوا من قَبيحِ الأعمالِ

قولُه تعالى: ﴿جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، فيه لمّا كان المعنى جئناك بالعذاب الذي كنت تتوعّدُهم به فكانوا فيه يَمترون، كان الكلامُ على معنى المآل، أي قد عبَّر عن مآل ما صاروا إليه بعدَ تذكيرهم وتوعُّدِهم بالعذاب، فتخطّى ذكرَ السّببِ للإشعارِ بعظَمِ امترائِهم وقُبحِه، وأنَّه هو سببُ وقوع العذابِ عليهم[2].

دَلالةُ تركيب ﴿كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾:

الاستمرارُ على المنكر، يوصِلُ إلى التّطبُّعِ عليه وتعوُّدِه

أفاد التّعبيرُ بتركيبِ (كان يفعل) الإشارةَ إلى استمرارِ امترائِهم ومواظبتِهم عليه، وأنَّه كان جِبلّةً فيهم وطبعًا لا يفارقُهم[3].

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بالموصولِ وصِلتِه:

الشّكُّ في صدقِ الرّسولِ سببٌ لوقوعِ العذابِ، بِلا ارتيابٍ

قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، فيه عبّرَ بالاسم الموصول؛ للإيذانِ بوجه بناءِ الخبرِ وهو التّعذيبُ، ليفيدَ الكلامُ أنَّ شكَّهم في صدّقِ لوطٍ وفي رسالتِه وفي ما أوعدَهم به هو سببُ مجيئِهم بالعذاب.

بَلاغةُ تقديمِ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿يَمۡتَرُونَ﴾:

لِلتَّقْديمِ أثرٌ في الدّلالةِ، وفي رعايةِ الفاصلةِ

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾، على مُتعلَّقه تأكيدَ امترائِهم في العذاب، للإشعارِ بعظِمِ ما وقعوا فيه منَ الامتراء، وفي التّقديمِ رعايةُ الفاصلة كذلك[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/311.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/71، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

الانحرافُ عنِ الفطرةِ الإنسانيَّةِ، يُعمي عنِ الحقائقِ

دَلالةُ الحرفِ (فِي) على الظّرفيّةِ:

قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، حيث أفاد حرفُ الجرِّ (في) الذي هو للظّرفيَّة شدّةَ امترائِهم في ما أوعدَهم به لوطٌ عليه السلام، حتَّى صارَ ظرفًا لامترائِهم حاويًا له، ليفيدَ أنَّهم كانوا يَشكّون شكًّا عظيمًا.

تجدُّدُ امتراءِ المُنحرفين، دون أن يَتركوا قبيحَ نَزواتِهم

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿يَمۡتَرُونَ﴾:

عبّرَ بصيغةِ المضارعِ للإشعارِ بتجدّدِ امترائِهم واستمرارِهم عليه، لئلّا يتركوا قبيحَ نزواتهم وانحرافِهم، وفيه تصويرٌ لحالةِ الامتراءِ التي كانوا عليها تقبيحًا لها.

سَعْيُ المنحرفين في طلبِ الشّكِّ الأثيمِ، والاستمرارِ في انحرافِهم

دَلالةُ صيغةِ ﴿يَمۡتَرُونَ﴾ في السّياقِ:

أفاد التّعبيرُ بصيغةِ (يفتعل) أنَّهم كانوا يتكلَّفون الشّكَّ ويجتهدون في طلبِه وتحصيلِه، لأنَّ الامتراء هو تكلُّفُ المِريةِ[1].

طلبُ المُنحرفين الشّكَّ في صدقِ الرِّسالاتِ من أجلِ تَكذيبِها

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿يَمۡتَرُونَ﴾:

عبّرَ بـ﴿يَمۡتَرُونَ﴾ دون يشكّون؛ لأنَّ الامتراءَ هو طلب التّشكُّك مع ظهور الدّليل[2]، فيُشعِرُ التّعبير باللّفظ أنَّهم كانوا على علم بالحقِّ الذي جاء به لوطٌ عليه السلام وبما أوعدَهم به لظهورِ الدلّيل، ولكنَّهم كانوا يطلبون الشّكَّ فيه من أجلِ تكذيبِه حرصًا على شهواتِهم القبيحة، ولمّا كانوا مكذِّبين بلوطٍ وما جاء به عبّر عن تكذيبِهم بـ﴿يَمۡتَرُونَ﴾؛ لأنَّ الجاهلَ يوصَفُ بالشّكّ وإن كان مكذّبًا من جهةِ ما يَعرِضُ له منه، من حيث إنّه لا يرجعُ إلى ثقةٍ فيما هو عليه، فكأنَّ بقاءَه على الشّكِّ مع وضوح الدّليل إيذانٌ بالتّكذيب، ومن شكَّ في شيءٍ مع وضوحِ صدْقِه وظهورِه كان مكذِّبًا فيه[3].

(1) الحرالي، تراث أبي الحسن الحرالي، ص: 274.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 8/385.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/71.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الامتراءُ والشّكُّ والرّيبُ:

إذا ظهرَ الدّليلُ بطلَ الشّكُّ والتّردُّدُ

المِريةُ هي التّردّدُ في الأمرِ مع ظهورِ الدّليلِ، والمِراءُ أخصُّ منَ الشّكِّ؛ لأنَّ الشّكَّ هو تَرَدُّدُ الذِّهنِ بين أمرَين على حدٍّ سواءَ، وأمّا المِراءُ فيكونُ أقربَ إلى التّكذيب بسبب اقترانِه بظهورِ الدّليلِ على صحّة أحد الطّرفَين، وأمّا الرَّيبُ فهو شكٌّ مع تُهمةٍ، ودلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 2]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: 23]؛ فإنَّ المشركين - مع شكِّهم في القرآن - كانوا يتَّهمون النّبيَّ بأنَّه هو الذي افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون، وكذلك يقال: إنّي شاكٌّ اليَوْمَ في المَطَر ولا يجوز أن يُقالَ: إنّي مرتابٌ اليَوْمَ بالمطر، ويقال: إنّي مرتاب بفلانٍ إذا كانَ شاكًّا في أمره واتَّهمه[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 99.